شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٤)

ثم قال: [حدَّثنا يحيى الحماني، ويحيى بن صالح الوحاظي، قالا: حدَّثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي، حدَّثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إنَّ في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس}].

هذا أيضاً تضمن ذكر عرش الرحمن، وأنَّه عرش حقيقي، وتضمن ذكر الفردوس وهي أعلى الجنان، ولهذا قال: {إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنَّه أعلى الجنة ووسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة}، ولا يمتنع أن يكون الشيء جامعاً بين العلو والتوسط، أرأيتم قمة الجبل أليست أعلاه؟ أليست أوسطه؟ فيكون الشيء أعلى وأوسط، لا يمتنع الأمر، فهو أوسط من حيث ما يحيط به من ربض الجنة، وهو أعلى باعتبار الفوقية.

{وسقفه عرش الرحمن}، فلا ريب أنَّ الفردوس هو أعلى الجنة، والشاهد قوله: {وفوقها عرش الرحمن}، فوق الفردوس عرش الرحمن.

ثم قال: [حدَّثنا محمد بن كثير، أنبأنا سفيان وهو الثوري، حدَّثنا أبو هاشم، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: إنَّ الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً، فكان أول ما خلق الله القلم، فأمره وكتب ما هو كائن، وإنَّما يجري الناس على أمر قد فُرغ منه].

وفي هذا فائدة وهو أنَّ الأولية المطلقة للعرش على القلم، فإذا قيل: أيهما خُلق أولاً العرش أو القلم؟ فالعرش خُلق أولاً، وأما حديث {أول ما خلق الله القلم}، فهذه الأولية باعتبار مقدورات الخلائق التي في السموات والأرض، لأنَّه قال في الحديث: {أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة}، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فأولية القلم هو للمقدورات المتعلقة بالسموات والأرض ومنها أفعال العباد، وأما العرش فقد كان قبل ذلك، وهذا الحديث صريح في أنَّ العرش قبل القلم.

ثم قال: [حدَّثنا عبد الله بن صالح المصري، (قال): حدَّثني ابن لهيعة، ورشدين بن سعد، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، قال: لما أراد الله تبارك وتعالى أن يخلق شيئاً إذ كان عرشه على الماء، وإذ لا أرض ولا سماء، خلق الريح فسلطها على الماء حتى اضطربت أمواجه وأثار ركامه، فأخرج من الماء دخاناً وطيناً وزبداً، فأمر الدخان فعلا وسما ونما، فخلق منه السموات، وخلق من الطين الأرضين، وخلق من الزبد الجبال].

هذا الحديث ضعَّفه المحقق، ويغني عنه قول الله عز وجل: ((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا..))[فصلت:٩] إلى آخر الآيات التي فيها تفصيل ذكر خلق السموات والأرض، ولا ريب أنَّ تفاصيل خلق السموات والأرض من الأمور الغيبية التي لا سبيل للعلم بها إلا ما أخبر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم، كقول الله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ))[الأنبياء:٣٠]، وبهذه المناسبة فما يذكره الفلكيون أو الجيولوجيون أو علماء الطبيعة في هذا المقام إن كان موافقاً لمدلول الآيات فإنَّا نسلم به، ونقول: قد شهد به كتابنا، وإن كان يخالف ذلك فإنَّا نرده، ونعلم أنَّه خلاف الحق، فإنَّ ثم نظريات كثيرة تتعلق بالسديم ونشأة الكون وغير ذلك، ويقال فيها: معلومات تحتمل الصحة والخطأ، فما كان موافقاً لظاهر القرآن من كون مادة السموات والأرض كانتا سديماً واحداً أو مجرة واحدة، ثم بحركة معينة جرى انفصال بينهما، هذا يشهد

له القرآن، وأما سائر التفاصيل التي فيها ذكر ملايين السنين وغير ذلك، فإنَّ الإنسان لا يقطع فيها بشيء، لا يثبت ولا ينفي، ويعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أحكم خلقه.

[قال أبو سعيد رحمه الله: ففيما ذكرنا من كتاب الله عز وجل، وفي هذه الأحاديث بيان بيِّن أنَّ العرش كان مخلوقاً قبل ما سواه من الخلق، وأنَّ ما ادعى فيه هؤلاء المعطلة تكذيب بالعرش، وتخرص بالباطل، ولو شئنا أن نجمع في تحقيق العرش كثيراً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لجمعنا، ولكن علمنا أنَّه خلص علم ذلك والإيمان به إلى النساء والصبيان، إلا إلى هذه العصابة الملحدة في آيات الله، طهَّر الله منهم بلاده، وأراح منهم عباده].

إذاً هذا هو مراده رحمه الله إثبات حقيقة العرش، وهو قد أشار إلى أنَّه يمكن أن يُفرد في ذلك جمع، وقد فعل غيره فألَّف ابن أبي شيبة رحمه الله رسالة في العرش، وكَتَب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "الرسالة العرشية" مما سبقت قراءته في هذا المسجد، فيجب أن نؤمن بالعرش على الحقيقة التي أخبر الله تعالى بها ونبيه صلى الله عليه وسلم، وأن ندع هذه التأويلات الباطلة التي يدعيها المعطلة قديماً وحديثاً، فإنَّه لا يزال حتى هذا الوقت من يفسِّر العرش تفسيراً مجازياً، ويفسِّر الاستواء تفسيراً مجازياً، فعلى المؤمن البصير أن يعتصم بدلالة الكتاب والسنة الظاهرة، ولا يترع إلى أي شيء من الترعات المجازية التي لا موجب لها إلا المقدمات الفاسدة، عوِّد نفسك يا طالب العلم أن يكون تعظيمك للنصوص قاطعاً لكلِّ وارد من الواردات، فاعلم أنَّ الله تعالى أصدق قيلاً، وأحسن حديثاً، وأنَّه أراد بكلامه هداية الخلق لا التلبيس عليهم، فإذا استصحبت هذه المعاني تلقيت كلام الله وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم بالقبول التام وانتفعت به، وإذا كان الإنسان فيه دغش وشك فإنَّه لا ينتفع بالقرآن العظيم، فلهذا قال ربنا سبحانه وتعالى: ((مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى))[طه:٢]، من تلقى القرآن بيقين وثقة لم يشق به، واطمأنت نفسه، ومن سلك المسالك الملتوية وبحث عن التأويلات الفاسدة شقي بالقرآن، شقي به وصار همه المقيم المقعد هو أن يبحث عن المخارج والتأويلات، فيكون عمله مع القرآن هو تحريفه لا قبوله والانتفاع به، فلا يصدق عليه إلا أنَّه شقي بالقرآن، ثم انتقل إلى باب ذي صلة فقال:

[باب استواء الرب تبارك وتعالى على العرش وارتفاعه إلى السماء، وبينونته من الخلق وهو أيضاً مما أنكروه.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ((إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ))[الأعراف:٥٤]، وقال: ((تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى))[طه:٤-٨]، وقد قال: ((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ))[السجدة:٤-٦]، وقوله: ((إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ))[آل عمران:٥٥]، وقوله: ((وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ))[الأنعام:١٨]، وقوله: ((يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ))[النحل:٥٠]، وقوله: ((إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ))[فاطر:١٠]، وقوله: ((ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ))[المعارج:٣-٤]، وقوله: ((أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ))[الملك:١٦-١٧]، ((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[فصلت:٩-١٢].

قال أبو سعيد: أقرت هذه العصابة بهذه الآيات بألسنتها، وادعوا الإيمان بها، ثم نقضوا دعواهم بدعوى غيرها، فقالوا: الله في كلِّ مكان، لا يخلو منه مكان].

هذه المسألة هي مسألة العلو، وهي مسألة شريفة من أشرف مسائل الدين، وأجل مسائل الصفات، وهو اعتقاد المؤمن بأنَّ الله سبحانه وتعالى له العلو المطلق في ذاته، فالله سبحانه له ثلاثة أنواع من العلو: علو

الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، فلا يختلف أهل الإسلام في علو القدر وعلو القهر، علو القدر أنَّ له المثل الأعلى، فلا وصف أعلى من وصف الله، فمن نازع في ذلك وزعم أنَّ أحداً أكمل وصفاً من الله فلا يرتاب مسلم بكفره، كذلك علو القهر، فالله تعالى قد قهر عباده، وعلا عليهم بقهره سبحانه، ((وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ))[الأنعام:١٨]، فلا يغالبه أحد، ولا يرتاب في هذا مؤمن، فمن نازع في هذا فلا شك في كفره، وإنَّما اختلف أهل القبلة في مسألة علو الذات، فأهل السنة والجماعة قاطبة على أنَّ الله سبحانه وتعالى بذاته فوق سماواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، بهذا الوضوح الذي يفهمه الشيوخ والعجائز والصبيان، وكل إنسان على الفطرة يرى أنَّ إلهه ومعبوده في العلو المطلق، يفزع قلبه إليه، ويتجه إليه، ويحس بانجذابه نحو العلو حين يناجيه، هكذا المؤمنون، بل حتى سائر مخلوقات الله من البهائم وغيرها مفطورة على الإيمان بعلو الله تعالى.

وخالف أهل السنة في هذا أنواع من المعطلة وهم الجهمية، فالجهمية أوائلهم كانوا حلولية، وأواخرهم كانوا عدمية، أما الحلولية منهم فكانوا يقولون: إنَّ الله في كل مكان، حالٌّ بين عباده، هكذا، أنَّه في كل مكان، كما حكى عنهم الدارمي قوله: (بدعوى غيرها، فقالوا: الله في كل مكان، لا يخلو منه مكان). تعالى الله عما يقولون، ويستدلون بقول الله تعالى: ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ))[الحديد:٤]، ((وَهُوَ مَعَهُمْ))[النساء:١٠٨]، ((وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ))[الأنعام:٣]، إلى غير ذلك مما يشبهون به.

وأما متأخرو الجهمية فإنَّهم عدمية، كيف عدمية؟ صاروا يقولون: إنَّه ليس داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا أمام، ولا خلف، ولا محايث، ولا محاذي، ولا مباين، ولا ولا ولا، سلسلة من النفي التي مآلها إلى إنكار وجود الله، أنكروا جميع الاتجاهات الست، قالوا: لا أمام، ولا خلف، ولا يمين، ولا شمال، ولا فوق، ولا تحت، إذاً أين يكون؟ لا داخل العالم، ولا خارجه، لا محايث، ولا مجانب، ولا محاذي، ولا ولا ولا ولا، سلسلة من النفي مؤداها إلى أن يصبح إثباتهم لله إثبات في الأذهان لا وجود له في الأعيان، فلهذا قلنا عنهم: إنَّهم عدمية، لأنَّ مقالتهم تأول إلى العدم، كما قال بعض السلف: إنَّما يحاولون أن ليس فوق السماء إله، هذا مؤدى قولهم، فلأجل ذا أعظم السلف رحمهم الله إثبات علو الله تعالى

علو ذات، وقال بعضهم بعض علماء الشافعية كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّ في القرآن العظيم ألف دليل على إثبات علو الله، ودلالة نصوص الكتاب والسنة على إثبات الله متنوعة جداً، فتارة تكون بذكر العلو صريحاً، كقول الله تعالى: ((سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى))[الأعلى:١]، ((وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ))[البقرة:٢٥٥]، ((الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ))[الرعد:٩]، هذا علو صريح، وتارة بذكر صعود الأشياء إليه، كما تلا المؤلف: ((إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ))[فاطر:١٠]، وهل يكون الصعود إلا إلى أعلى؟ وتارة بذكر رفع الأشياء إليه، ((إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ))[فاطر:١٠]، والصعود والرفع لا يكون إلا إلى أعلى، لا يكون إلى يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا تحت، تارة بذكر العروج إليه، ((تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ))، والعروج لا يكون إلا إلى أعلى، تارة بذكر نزول الأشياء منه والنزول لا يكون إلا من أعلى، وهكذا، وتارة بذكر الاستواء، والاستواء في لغة العرب معناه العلو، وتارة بذكر كونه في السماء ((أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ))[الملك:١٦]، أي: على السماء، وتارة بذكر الفوقية ((وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ))[الأنعام:١٨]، وهكذا نجد أن تنوع دلالة الكتاب والسنة على إثبات العلو يُعد بالعشرات، حتى إنَّ فرعون لما خاطب موسى ماذا قال له؟ لما أراد أن يجادل موسى قال لهامان: ((يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى))[غافر:٣٦-٣٧]، علامَ يدلُّ ذلك؟ على أنَّ موسى عليه السلام أخبره أنَّ إلهه الذي يجب أن يعبده في السموات، قال: ((فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى))، ((أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ))، يعني: طرائقها، فهذا أمر محسوم عند أهل السنة والجماعة وهو أنَّ الله تعالى له علو الذات، وقد توافرت أنواع الأدلة كما سمعت دلالة الكتاب والسنة، وانعقد الإجماع على ذلك كما حكاه غير واحد من السلف: كنَّا والتابعون متوافرون نقول: إنَّ الله تعالى ذكره على عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات. وكذلك دلَّ عليه العقل، فأيُّ صاحب عقل سليم يدرك أنَّ العلو صفة كمال، وأنَّ السفل صفة نقص، هذا بمحض العقول، وأنَّ الله تعالى الذي هو مستوجب لصفات الكمال يجب أن يتصف بالعلو، وأن يُنزَّه عن ضده، هكذا يقطع العقل، وكذلك الفطرة، فإنَّ الفطر كما أسلفنا على أنَّ الله تعالى في العلو، ما هناك صاحب فطرة سليمة يجد قلبه يذهب يمنة أو يسرة أو أمام أو خلف، كما قال أبو جعفر الهمداني لأبي المعالي الجويني لما قال: كان الله ولا شيء، وهو الآن على ما كان عليه. يعرِّض بنفي الاستواء،

وإنكار الصفات الفعلية، فقال له على البديهة: يا إمام دعنا من ذكر العلو والاستواء، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها أحدنا في قلبه، ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة. فجعل الجويني يلطم على رأسه ويقول: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني.

وأنتم تلاحظون عند فئات المسلمين جميعاً حتى الأطفال أنَّهم يعتقدون أنَّ الله في السماء، ربما سأل الطفل سؤال أو سؤالين من الأسئلة المشكلة مثلاً، لكن هذا لا ينم عن تردد، وإنَّما عن براءة، لكنه يقبل أنَّ الله تعالى في العلو، ولا يستوحش من ذلك، ولا يستعظم، بل يقبل هذا، ولو قيل له ضده لنفر منه وأباه، وعلم بأنَّ هذا غير سائغ. هذا أمر مدرك ولله الحمد.

فالسلف رحمهم الله صاحوا بهؤلاء المعطلة من كل جانب حينما أنكروا علو الرب سبحانه وتعالى.

ومن فروع هؤلاء المعطلة الأشاعرة، فإنَّ الأشاعرة – وللأسف – لا يثبتون العلو علو الذات، بل يقولون: الله في كل مكان، فتسمعهم يقولون: ربنا في كل مكان. وهذه عبارة باطلة، نقول: علمه في كل مكان، أما هو سبحانه فهو فوق سماواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، يجب أن تُلقَّن هذه الجمل لآحاد المسلمين وأفرادهم ليحيوا عليها ويموتوا عليها.